الفنان سامي كمال ..عذوبة الصوت ورقة الألحان

قاسم حسن *

- كان من أحلامي أن أرى سقوط الدكتاتور ونظامه الفاشي

- ناضل من اجل اشاعة الموسيقى والغناء الرفيع

- سيبقى تأثير الأغنية السبعينية مهيمنا على ذائقة المتلقي العراقي

- الأغنية تؤرخ للفترة التي ظهرت بها

- الريف العراقي بجماله وصدقه وناسه خير نبع للأصالة والجمال

الفنان سامي كمال صوت من الجنوب ، لايختلف عليه إثنان حيث يُجمع غالبية من يسمع صوته ، بانه الصوت الجميل والشَجِن والشدو الذي لا يعرف المستحيل ، إنحدر من مدينة الكحلاء .. مدينة الماء والحب والأهوار والشداء والأحزان ‘ والفضاءات والطبيعة الساحرة ، من تلك الأجواء غَرِّد طائر الشدو الحزين الفنان سامي كمال ...

في طفولته كان يتبارى مع أخيه في الغناء حيث شكلا فرقتين للغناء ، يستمع كثيرا الى الموسيقى والغناء العراقي بكل أنواعه (الشعبي والبدوي والريفي) العربي ايضا كـــ (المصري واللبناني) كان هوسه وإدمانه على الغناء في كل وقت ومكان ، إكتشفه معلمه الاول (زبون مدلول السهيلي) في المدرسة الابتدائية.. في الكحلاء (ربف محافظة ميسان) وأخذ بيده مشجعا إياه على الأستمرار بالغناء وقدمه على اقرانه وزملاءه ليغني في احتفالات المدرسة ومناسباتها.. في شبابه إنتقل الى العاصمة بغداد التي أدهشته كثيرا لأختلافها عن بلدته (الكحلاء) بانفتاحها وتعدد الثقافة فيها وكثرة المدارس الفنية والموسيقية ايضا ،تاثر كثيرا بالغناء المصري واللبناني وخاصة (الرحابنة) وإضالفة الى خلفيته المتأثرة بالغناء العراقي الجنوبي منه (الريفي والشعبي) إنتمى هناك الى فرقة موسيقى الجيش كعازف على آلة الكلارنيت ، وفيها أتقن العزف على آلة العود وآلة السكسفون ، ومن هنا بدأت حياته الفنية والغنائية والموسيقية.. حيث تغيرت نظرته للموسيقى والغناء من مرحلة الهواية الى مرحلة الاحتراف .. معززا ذلك بالقراءات النظرية وتوسيع مداركه في البحث الجاد والتمحيص في الاختيار.. بدأ رحلته مع الغناء اواخر الستينات في فرقة المنشدين الصباحية..

عام 1974 شكل مع بعض الشعراء والفنانين تجمعاً ضم نخبة مميزة من الشعراء والملحنين منهم الشاعر الراحل كاظم اسماعيل كَاطع والشاعر كريم العراقي والشاعر فالح حسون الدراجي والشاعر كاظم السعدي والملحن كمال السيد والملحن كوكب حمزة ، والشاعر كريم راضي العماري الذي كتب له اغنية (دورة عيونج) ، في هذه الفترة لحن وغنى مجموعة من الاغاني التي لازالت تردد ويتغنى بها العراقيون محبي الغناء العراقي الأصيل ، رايح يا رايح وين ، مدللين ، بين جرفين العيون "البريسم"

التي تكنى بها المطرب حسن بريسم ، يا ساهي العيون ، مدللين ، احبه وأريده ، والحب ضاع للشاعر كريم العراقي ،..

أكثر ما يشدنا في أغاني هذا الفنان الرائع هو المذاق العراقي السلس مع لحنه الممتع و يتذكر العراقيون الفنان سامي كمال وأغنيته الشهيرة " رايح يارايح وين " والحاصله على جائزة أفضل أغنية عام 1977-1976 ، والتي لابد من الاشاره هنا الى ملحنها المرحوم الفنان الراحل كمال السيد والذي منحه أسمه الفني..

كان للملحن والفنان الراحل كمال السيد دورا مهما في تقديمه الى الساحة الغنائية العراقيه كصوت غنائي جديد في عام 1974 بأغنيته المشهورة " مدللين " من كلمات الشاعر إسماعيل محمد إسماعيل، وبعدها توالت الالحان والاغاني التي لها طابعها الشجي والعراقي الاصيل نظرا لنجاحاته المبهره والتي يفتخر بها العراق وشعبه وتغنت بها الاجيال حيث غنى سامي العديد من ألحان المرحوم كمال السيد مثل أغنية " أحبه وأريده " للشاعر كاظم اسماعيل كاطع و " الحب ضاع " كلمات كريم العراقي، وأغنية " بين جرفين العيون " من كلمات الشاعر مهدي عبود السوداني، هذه الأغاني التي اطربتنا والراسخه في ذاكرة العراقيين بصورتها الشعرية الدافئة والرقيقه والشجيه،وأصالته العراقية وموسيقاه التي تفيض منها الحانه وصوته الشجي ، وهذا وما نتلمسه أيضا في أغانيه على مدى ثلاثة عقود من العطاء.. وهوالمتمرس في الغناء منذ أواخر ستينات القرن الماضي ، حيث دخل الأذاعة كمنشد في فرقة المنشدين الصباحية,,

غادر الفنان سامي كمال العراق عام 1979 بعد اشتداد الهجمة البربرية ضد الوطنيين والمثقفين والمبدعين من الفنانين الذين لا يروق للنظام الفاسد ابداعهم الذي لا يصب في خدمة الدكتاتورية والترويج والتطبيل لحزبها القائد والشيوعيين الذين ضيقت السلطة الديكتاتورية الخناق علىهم وبقية شرائح الشعب الواعية ، تنقل في غربته بين عدن (اليمن الجنوبية سابقا) ودمشق وبيروت واستقر به المقام في السويد ،..

كانت محطات غربته ومنفاه دمشق وبيروت وعدن من المحطات المهمة في حياته الفنية بالرغم من قسوة الغربة ومرارتها وسلبياتها على الانسان والفنان خاصة ، كان منتجا في اللحن والغناء لوطنه وشعبه ، مناضلا بصوته والحانه ، تلك المحطات التي تختلف كثيرا عن محطته الأخيرة في السويد حيث الغربة المقيتة والمنفى البعيد بالرغم من إيجابياتها في كسب صحته ، التي ساءت لفترة غير قليلة منعته من الغناء والتلحين وبالرغم من ذلك ايضا انتج الحانا لازال يحتفظ بها ،

في غربته أنتج ولحن وأنشد اغان كثيرة ، يشدو فيها وطنه وشعبه ، الذي دمرته السلطة الديكتاتورية المقيته ، أغان الحنين، اغانٍ تجذرت في الوجدان العراقي ، أغنية (لبغداد) من أجمل الألحان التي قدمها في تلك الفترة (للشاعر هاشم شفيق) بالرغم من ان الكلمات لشاعر ليس غنائي وليست من الشعر الشعبي ،وأغنية (صويحب) رائعة الشاعر الكبير مظفر النواب وقصتها الشهيرة لذلك الفلاح المناضل من الريف العراقي ،وأغنية (دكَيت بابك يا وطن) للشاعر الكبير شاكر السماوي ، يا بحر ، مجبور افاركَ هلي ، وما ودعونه وغيرها من الاغاني الكثيرة..

وكغيره لم يسلم من مطاردة مخابرات النظام الفاشي في بغداد، وعملاءه حيث ينتشرون وبشكل مكثف في تلك البقعه المحررة من بيروت (الغربية) ، آنذاك حيث كان التحرك مقيدا ومجازفه كبيرة ، لما كان للنظام الفاشي في العراق، من عيون امتدت الى مؤسسات الدولة اللبنانية وبعض الأحزاب اللاوطنيه والمؤسسات الفلسطينيه وبعض منظماتها الموالية والمدعومة من نفس النظام ، وبدأت عملية الاغتيالات والملاحقات والاختطافات فما كان عليه، الا ان ينجو (مرة اخرى) الى محطته الثانيه في المنفى ، مدينة عدن في جمهورية (اليمن الديمقراطيه) وهناك ساهم بشكل مباشر وقوي في النهضه الموسيقيه في ذاك البلد الذي ساهم في استيعاب المناضلين من المبدعين وغيرهم في تلك المرحلة العصيبة ، حيث عمل كمدرسا للموسيقى واسس فرقة غنائيه انتجت الكثير من الاغاني العربية واليمنيه ولم يغب عن باله همه العراقي الذي رافقه في رحلته حيث شارك زملاءه من الفنانين المبدعين الذين التحقوا به في هذه البقعة من منفى العراقيين المبدعين أمثال الفنان حميد البصري والفنانة شوقيه والمرحوم الفنان كمال السيد والفنان حمودي عزيز إضافة الى الفنان جعفر حسن، وشاركهم تأسيس اول فرقه موسيقيه غنائيه عراقيه في المنفى وهي (فرقة الطريق العراقيه) هذه الفرقه التي انتجت اجمل الاغاني الوطنيه العراقيه التي تغنت بالوطن والناس واخذت على عاتقها الوصول بالاغنيه العرافيه الى مستواها الحقيقي بعد ان دمرت السلطه الفاشية في العراق روحها وتفريغها من محتواها الانساني.

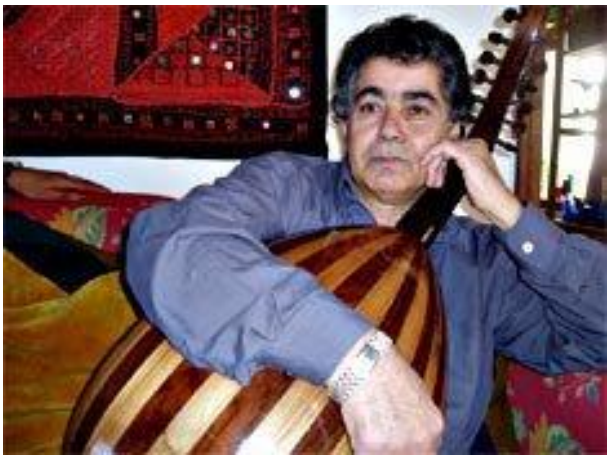

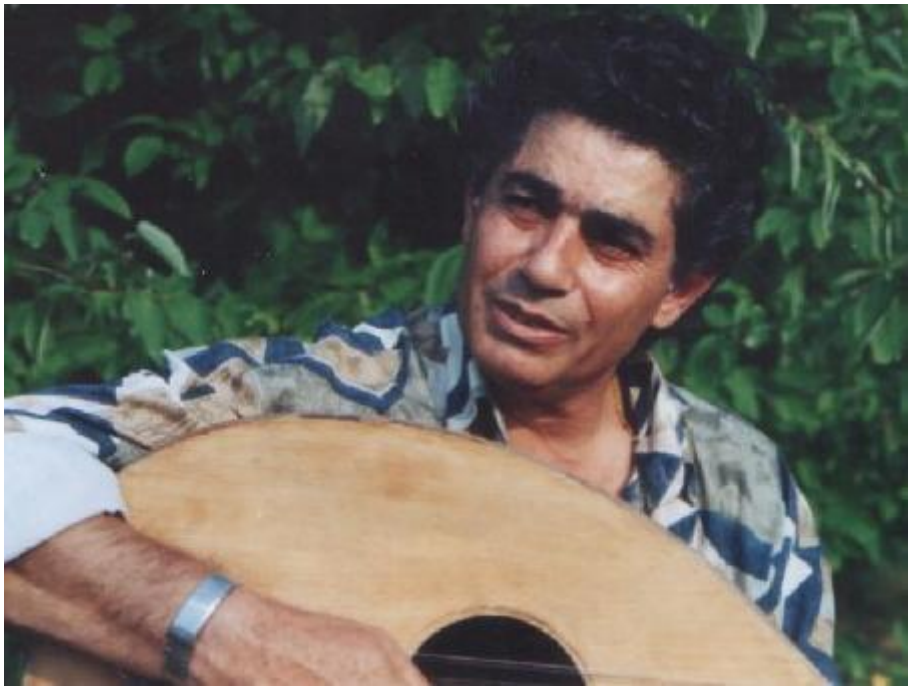

غادر اليمن الى سوريا ، المحطة الأكثر قربا الى روحه وفنه، بعد ان قضى فيها عدة سنوات " محطته الثانيه في المنفى " وهناك التحق برفيق دربه الفنان الراحل كمال السيد وزملاء منفاه الفنان كوكب حمزة والفنان المطرب فلاح صبار وآخرين ليؤسسوا من جديد فرقتهم الموسيقية والغنائية (فرقة بابل الغنائية) عام 1983 حيث كانت هذه الفرقه وزميلتها فرقة الطريق في اليمن صوتا عراقيا حقيقيا للانسان العراقي المنفي حيث كانت الاغاني الوطنية والتراثية العراقية ، تشكل المصدر الروحي الملهم لهاتين الفرقتين.

قدم الفنان سامي كمالمن خلال هذه الفرقة الكثير من الاغاني والالحان اضافة الى عمله مع الفرقة الموسيقية للشبيبه الفلسطينية التي اسسها في وقت سابق..

تميزالفنان سامي كمال بطيبته وبساطته ، كغالبية من جايلوه من الفنانين والمبدعين العراقيين، ورغم شهرته ونجوميته حافظ على تواضعه وبساطته التي تجسدت بحبه للوطن والناس والوفاء لأحبته ، فقد امتلك القدر العالي من الحب والعاطفة التي بصمت نتاجه الفني وتجذرت في روحه وعذوبة صوته الشجي..

يقول الفنان في لقاء سابق معه :-

(كانت سوريا هي الاقرب الى قلبي بعد العراق ومن ثم يأتي اليمن ، ذلك البلد الجميل ، وشعبه الاصيل ، في سوريا كان هناك ثمة تلاقح في الرؤى والتطلعات بيني وبين عدد من الفنانين العراقيين و السوريين والعرب ، كانت رفقة مثمرة ومنتجة ، اذ لا يمكن لأية اغنية ان تكون بين ايدي الناس من دون ان تمر بهذا الكم الهائل من الشعراء والموسيقيين والملحنين، وكانت الاغاني التي أنتجتها ولحنتها في تلك الفترة (مو حزن لكن حزين) للشاعر الكبير مظفر النواب، وغيرها من الاغاني التي كتبها عدد من الشعراء وقمت بتلحينها جميعا ، جميع الاغاني التي غنيتها منذ مغادرتي العراق عام 1978 وحتى توقفي عن الغناء هي من الحاني).

عانى ويعاني الفنان سامي كمال كثيرا ، كغيره من الملحنين العراقية وخاصة المغتربين منهم ، من موضوع سرقات نتاجهم والحانهم وأغانيهم لعدم وجود قانون يحمي الفنان ونتاجه من السطو على أعماله ، حيث أن أغنياته التي تعرضت للسطو كأغنية (رايح يارايح وين) وأغنية (بعدج زغيرة عالسهر) وأغنية (أحبه وأريده) وكذلك (ولا تكَول الحب ضاع) وأغنية (يا بحر) ... الخ ، ومع هذا أن الذي يتابع الغناء العراقي يعرف جيدا لمن تعود هذه الأغنية أوتلك ..

تعرض الفنان عام 1994 لجلطة دماغية حادة كادت أن تؤدي بحياته، لولا صبره وعصاميته وحبه للحياة، ووقوف أهله واصدقاءه ومحبيه الى جانبه، وزوجته العظيمة التي كان لها الدور الأكبر في رعايته والوقوف الى جانبه ، ومنذ ذلك توقف عن الغناء والتلحين.. وكانت خسارة فادحة وكبيرة ولا تعوض ..

سألته عن مشاعره عن حال العراق اليوم وعودته القصيرة للوطن بعد منفى دام ثلاثة عقود... قال:-

كان من أحلامي أن أرى سقوط الدكتاتور ونظامه الفاشي .. واعود لأغني لشعبي ووطني وكانت فرحتي كبيرة ولا توصف .. ولكن يبدو أن احلامي قد تبددت ، ويا لسخرية القدر، حيث وجدت بقايا العراق ولم أجد العراق .. الناس مختلفون ، الثقافة ، الشوارع ، وجدت أشلاء العراق ..

وعن تغييبه عن الأعلام قال:-

وأنا أتساءل أيضا هل هناك اعلام ؟؟ يبدو ان الاعلام فقط لمن هم الأقربون ولوعاظ السلاطين ، اما نحن فلازلنا مغيبين ، وغير موجودين في قاموس الدولة العراقية اليوم ،

لم يكن الاعلام منصفا معي اطلاقا ،لا في زمن النظام البائد ، ولا اليوم .. كنت معارضا للنظام وباعلى صوتي ، وفضات الموت والسجن وتحملت المنفى القاسي على أن أغني له كما فعل المطبلون ، اما الآن لا اعرف بالضبط ماذا يجري .. لماذا هذا الجفاء ؟ ليس لي فقط وهناك الكثير من أمثالي ، زملاء لي ، نسوا وتناسوا جهدنا ونتاجاتنا ومنفانا ، يبدو انهم يريدون الثأر منا بدلا من انصافنا .

وعن حال الاغنية العراقية اليوم ومتابعته لها .. قال لازال أملي كبير بشبابنا وقدرتهم.. مثل الثُيل عادتنه ننكَص نرِد إردود..

والفنان سامي كمال لا يخفي مشاعره يقول ما يؤمن به دوما ...

(من الممكن جدا ان يمر الانسان ، اي انسان بالذي مررت به ، داخل الوطن وخارجه ، كنت ولازلت احمل في اعماقي رسالة ، كي اوصلها للناس ، وأعتقد أنني نجحت في ايصالها وتأديتها على اكمل وجه

وانا راض عن ادائي وعملي وما قدمته .. أفكر دائما بوطني وحزني كبير على ما يحدث الآن ، هذا الحزن المعجون بالفرح لأنه تخلص، والى الأبد، من دكتاتور وطاغية قل نظيره في هذا العصر .

نظره سريعه على عناوين اغانيه ومجموعاته الغنائيه التي صدرت له في بيروت وعدن ودمشق نرى ان الوطن ، الامل ، الحب ـ العوده ، الغربه ، التحريض على معاداة الفاشية والعنصرية والشوفينيه لنظام فاشي قل نظيره في تاريخنا في عالمنا القديم والحديث حيث كانت مجموعته التي صدرت في دمشق عام 1984 شاهدا على ذلك والتي تشدنا للوطن وتنشد الحريه وتحمل كل هذه المعاني التي ذكرت

فكانت أغنية (لبغداد) و(دكَيت بابك يا وطن) .. (صويحب) التي اشتهر بها..(يـا بـحـر) وأغنية (مشتـاكَ يا فاتني) ..(شلون بيه وبيك يبنادم) وغيرها الكثير

* فنان وإعلامي - هولندا